الغزو الصليبي الإسباني لليبيا 1510 ــ 1530 م
الأسباب والنتائج

■ د / محمد فرج مادي حسن

● أستاد مشارك قسم التاريخ الإسلامي - جامعة الزيتونة / كلية الآداب

المخلص

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه ، وبعد :

تعد ليبيا من دول شمال أفريقيا التي تعرضت للغزو من قبل المملكة الإسبانية الصليبية المتحدة المستحدثة في أواخر العصور الوسطى ، والتي تكونت على حساب الدولة العربية الإسلامية في الأندلس ، حيث استطاعت أن تقضي على جميع الدويلات العربية الإسلامية الضعيفة الواحدة تلو الأخرى ، وكانت آخر هذه الدويلات مملكة غرناطة الإسلامية عام 1492م ، ومنذ ذلك الوقت تمكنت المملكة الإسبانية من تحقيق وحدتها السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، مما كان له أثر كبير في ازدياد الروح الوطنية بينهم وشعورهم بالاندفاع وراء هذا الانتصار والمغالاة في الشعور الديني ، ونجحت نجاحاً منقطع النظير في السير قدماً لفرض الديانة المسيحية على جميع سكان البلاد ولم تحترم المسلمين في دينهم وأقامه شعائرهم الدينية وغلقت المساجد وحرقت الكتب الإسلامية الموجودة بمدينة غرناطة والتي تقدر بمئات الآلاف ولم يبق منها ألا كتب العلوم الطبية ، وبذلك هتكت كل المواثيق الإنسانية مما اضطر عدد كبير من المسلمين للهجرة ألى البلاد العربية في شمال أفريقيا ، ولم يبق الأسبان على ترك المسلمين عى حالهم بل أنهم ضلوا يتبعونهم الى الدول التي هاجروا إليها وخاصة في المدن الساحلية في شمال القارة الإفريقية المواجه لهم .

وازداد الأسبان رغبة في مطاردة العرب المسلمين للتنكيل بهم والقضاء على الدين الإسلامي ومطاردتهم اينما وجدوا ، وانضم إلى هذه الحركة أنصار البابوية في روما وشاركت فيها كل الطوائف النصرانية ، ألا أن الكاثوليك كانوا في المقدمة ، حيث كانت رغبة الانتقام من العرب المسلمين على الأخص تدفعهم دفعاً قوياً ، وتبدوا واضحة في أعمالهم الهمجية التي يرتكبونها في كل بلد تمكنوا من احتلاله ، واتخذت بذلك شكلاً صليبيا ، وبذلك فكروا في الاستيلاء على المقاطعات الواقعة في الشمال الإفريقي ، وتضمنت خطة الغزو الاستيلاء على وهران وبجاية وطرابلس .

وفي هذا البحث سنتحدث على الغزو الإسباني على طرابلس ، وسنتناول فيه الموقع الجغرافي لليبيا وأهميته ، والوضع في طرابلس قبل الهجوم الإسباني عليها ، والوضع في إسبانيا قبل قيامها بغزو طرابلس ، وأسباب الغزو ، والاستعداد للحرب من الجانبين ، وأحداث المعركة ، والمقاومة الشعبية ضد قوات الاحتلال ، ووضع الأسبان في طرابلس بعد الاحتلال ، بالإضافة إلى المقدمة والنتائج والمصادر والمراجع المستخدمة في البحث .

المقدمة

أدى انقسام المسلمين وضعفهم في الأندلس إلى اتحاد الدولة الإسبانية، فتكونت دولة قوية مسيحية في جنوب غرب أوروبا استطاعت في فترة وجيزة من الزمن القضاء على دويلات وممالك المسلمين العرب في الأندلس، وكانت آخر معاقل المسلمين فيها غرناطة التي أخذها الإسبان منهم عام 1492م، ومنذ ذلك الحين بدأت إسبانيا بفرض سيطرتها على كامل الأراضي الإسبانية، وهاجر عدد كبير من المسلمين إلى دول شمال أفريقيا تحت تهديد الإسبان المسيحيين وأجبر من بقى منهم في الأندلس على ترك الدين الإسلامي واعتناق الديانة المسيحية، وحرمت إقامة الشعائر الدينية وأغلقت المساجد، وبعد فترة من ذلك صدر قانون منع وجود الإسلام والمسلمين في إسبانيا إذ أصبح ذلك الوجود خطراً على الدولة الإسبانية والكنيسة الكاثوليكية، وازداد الإسبان رغبة في مطاردة العرب والمسلمين للتنكيل بهم والقضاء على الدين الإسلامي ومطاردة معتنقيه أينما وجدوا، ولم يقتنع الإسبان بهذا فقط، بل ذهبوا إلى أبعد من ذلك حيث فكروا في الاستيلاء على المدن العربية الساحلية المواجهة لهم في شمال أفريقيا فاحتلوا

مدناً عدة ساحلية في الربع الأول من القرن السادس عشر .

ويهدف هذا البحث إلى توضيح كيف أن في الاتحاد قوة وفي التفرق ضعف، وهذا ما حصل للمسلمين في الأندلس لتفرقهم فقد سهّل على الإسبان أن يقضوا على الدويلات والممالك الإسلامية واحدة تلو الأخرى، وأقاموا اتحاداً إسبانياً قوياً استطاعوا به أن يطردوا جميع المسلمين من الأندلس وملاحقتهم إلى المناطق التي هاجروا إليها واحتلالها وفرض الدين المسيحي عليها، وتحالفهم مع القوى المسيحية الأخرى ضد المسلمين حيث كان هدفهم واحداً وهو محاربة الإسلام والقضاء على المسلمين وهذا ما حصل فعملت الكنيسة الكاثوليكية بالأندلس على التحالف مع مسيحيي مالطة وإيطاليا فقاموا بالاشتراك في الحروب التي خاضتها إسبانيا ضد مدن سواحل شمال أفريقيا العربية الإسلامية وخاصة في حربها ضد طرابلس .

وتكمن أهمية هذا البحث في بيان عداوة الصليبيين للإسلام والمسلمين، ومظاهر ذلك من خلال غزواتهم وحروبهم، والتعريف بمدى الانتقام الذي يضمره الصليبيون المسيحيون أينما وجدوا للدين الإسلامي والمسلمين، وهذا واضح وضوح الشمس، فعند انتصارهم على الليبيين في طرابلس قتلوا كل من وجدوا من غير شفقة ولا رحمة ولم ينج منهم حتى الشيوخ الكهل والنساء والأطفال الرضع، وفعلوا أكثر من ذلك حيث قاموا بضرب أحشاء النساء الحوامل .

وفي هذا البحث سنتحدث عن الغزو الإسباني على طرابلس وسنتناول فيه الموقع الجغرافي لليبيا وأهميته، والوضع في طرابلس قبل الهجوم الإسباني عليها، والوضع في إسبانيا قبل قيامها بغزو طرابلس، أسباب الغزو، والاستعداد للحرب من الجانبين، وأحداث المعركة، والمقاومة الشعبية ضد قوات الاحتلال، ووضع الإسبان في طرابلس بعد الاحتلال، بالإضافة إلى المقدمة والنتائج والمصادر والمراجع المستخدمة في البحث.

1 - الموقع الجغرافي لليبيا وأهميته

أ. الموقع الجغرافي لليبيا :.

تحتل ليبيا الجزء الأوسط لساحل البحر الأبيض المتوسط الجنوبي الذي يطلق عليه في المصادر التاريخية والجغرافية شمال أفريقيا، وتمتد فوق مساحة تقدر بحوالي

1.750.000 مليون كيلو متر مربع أي أكثر من 18 ٪ من مساحة الوطن العربي بالقارة الأفريقية، وتأتي في المرتبة الرابعة من حيث المساحة في القارة الأفريقية بعد السودان والجزائر والكنغو زائير، وتتوسط ليبيا العالم العربي الأفريقي، وتتألف في الداخل من نطاق متوسطي وقطاع صحراوي تقع بين البحر الأبيض المتوسط ومن خلفه أوروبا شمالاً وبين الصحراء الكبرى ومن ورائها السودان الأفريقي وأفريقيا المدارية جنوباً، وتطل على ساحل البحر المتوسط بجبهة بحرية تصل طولها حوالي 1900 كيلو متر، في حين لا يفصلها عن جاراتها العربيات سوى حدود برية تصل أطوالها إلى حوالي 4600 كيلو متراً، وتمتد ليبيا بالتحديد من شاطي البحر المتوسط شمالاً إلى حدود كل من النيجر وتشاد في الجنوب، أما من ناحية الشرق فيمتد خط الحدود مع الحدود الغربية لجمهورية مصر العربية والحدود الشمالية الغربية للسودان، والحدود الغربية تمتد مع الجزائر وتونس [1].

ب. أهمية الموقع الجغرافي لليبيا :.

تحتل ليبيا موقعاً جغرافياً استراتجياً هاماً على حوض البحر الأبيض المتوسط فإلى الشرق منها تقع مصر، وإلى الغرب تقع تونس والجزائر، ويحدها من الجنوب والجنوب الشرقي تشاد والنيجر والسودان، ومن الشمال البحر المتوسط، فهي تؤلف النصف الشرقي للمغرب العربي، وحلقة وصل بين المغرب والمشرق العربي، وفي مجموعها جزء من هضبة أفريقيا التي تمتد من المحيط الأطلسي إلى البحر الأحمر، وزادت أهميتها من اتصالها بمصر وموقعها الجغرافي على طريق الحج من المغرب إلى مكة المكرمة، ثم إن الطرق التجارية بين أفريقيا وأوروبا، فمن طرابلس كان هناك طريق بحري قصير نسبياً ولهذا فهو أمن إلى أوروبا ماراً بجزيرة مالطا ثم صقلية، إلى جانب طريق القوافل التي تربط طرابلس بالأقاليم الأفريقية عبر الصحراء الكبرى [2].

وكان للحواضر الليبية اتصالاتها مع مراكز الحضارة والتجارة بغرب القارة الأفريقية، فقد كانت القوافل تفد إليها من قلب القارة وكانت موانيها تعد من المنافذ الهامة التي تصل إليها غلات قارة أفريقيا الغربية كما كانت لها اتصالات مع الموانى التجارية الهامة في إيطاليا وغيرها من أقاليم البحر المتوسط الأوربية، هذا بالإضافة

إلى موقع ليبيا في طريق الحجاز من شمال غرب أفريقيا إلى الأراضي الحجازية جعل لها أهمية خاصة في هذه العصور التي كانت القوافل هي وسيلة النقل الرئيسية [3].

وكانت ليبيا من ضمن مناطق الوطن العربي في القارة الأفريقية ولا تزال في خدمة التجارة والنقل عبر الصحراء وبين مراكز العمران في إقليم البحر المتوسط شمالاً والمراكز التي نشأت عند أطراف نطاق السافانا جنوباً وتلتزم القوافل الطرق والمسالك والدروب التي تمر بموارد المياه في الواحات، وهذه بحق موانى الصحراء وبهذا تعتبر نافذة مهمة تطل بها وعن طريقها على القارة الأفريقية فيما وراء الصحراء على العالم المتمدين، وبذلك كانت الصحراء الكبرى أداة قوية لربط شمال أفريقيا بوسطها وغربها، والمحطات التي تعتبر بمثابة الموانى الصحراوية التي توجد داخل الصحراء الليبية وتنطلق إليها القوافل من الموانى على ساحل البحر المتوسط هي غدامس وغات ومرزق وجرمة وتقع في الجنوب الغربي من ليبيا، وبونجيم وسبها في جنوب ليبيا وجالو وأوجلة والكفرة في الجنوب الشرقي لليبيا، وهذه الموانى الصحراوية تتوفر فيها سبل الحياة حيث إنها واحات تكثر فيها المياه الجوفية وغابات النخيل والأسواق العامة ويستطيع التجار الإقامة فيها لأيام عدة يستريحون فيها من تعب السفر وبضاعتهم في مأمن لوجود رجال أمن في هذه المحطات وهذه المحطات تأتي إليها القوافل على النحو الآتي :

1 ـ طريق ينطلق من طرابلس ويمر بغدامس ثم غات ومنها إلى أغاديس ثم كانو بنيجيريا ويرتبط بهذا الطريق عند غدامس طريق تجاري يأي من جادو وصبراتة.

2 ـ طريق طرابلس مزدة ثم جرمة ومنها إلى بيلمها بالنيجر .

3 ـ طريق لبدة بونجيم ثم جرمة ومنها إلى بحيرة تشاد .

4 ـ طريق بنغازي أجدابيا أوجلة الكفرة ومنها إلى الفاشر شرق السودان .

5 ـ طريق طرابلس برنو ويبدأ هذا الطريق من طرابلس إلى مرزق عبر سبها متجهاً إلى برنو ويعتبر من أسهل الطرق التي تعبر الصحراء وذلك من حيث وفرة المياه والأمن وكان يدعى طريق الجرمنت .

6 ـ طريق واداي ويعرف بالطريق الشرقي وينطلق من بنغازي إلى واداي مروراً بواحات أوجلة جالو الكفرة وتكرو تيبستي حتى ينتهي في أبشة يانعة عاصمة واداي.

وكانت هذه الطرق ممتلئة بالتجار ذهاباً وإيابا على مدار السنة [4].

ومهما يكن فإن هذا الموقع كان ضابطاً اساسياً جداً في تاريخ ليبيا السياسي والحضاري، فقد كان لفقره الطبيعي والعمراني الشديدين يبدو كجزيرة صحراوية أو شبه صحراوية بين هذه الكتل السكانية الضخمة، وتكاد تمثل فراغاً أو شبه فراغ قوة وسط تعد بمثابة مراكز طبيعية للقوة ومن هنا تدفقت الضغوط السياسية عبر التاريخ من هذه المراكز لتنصب فيها وتملأ الفراغ وهذا أول ما يفسر لماذا كانت ليبيا في جزء طويل من تاريخها فريسة للاستعمار والقوى الخارجية ؟[5].

2 ـ الوضع في طرابلس الغرب قبل الغزو الصليبي الإسباني 1460 . 1510م .

كانت طرابلس قبل غزو الدولة الإسبانية لها تابعة للدولة الحفصية تدير شؤونها بواسطة والٍ يعينه السلطان الحفصي، وكان كل ما يقوم به هذا الوالي هو جمع الضرائب من المواطنين والقيام بتجنيد الرجال القادرين على القتال كل ما اضطر الحفصيون للقتال، وبقي أهل طرابلس خاضعين لنفود الحفصيين ولم يجدوا سبيلاً للخروج عنهم وإعلان التمرد عليهم حتى عام 1460 م حيث حصلت حرب بين قبيلتين في طرابلس مما نتج عنها انضمام مجموعات كبيرة إلى كل قبيلة، وحدثت حرب طاحنة بينهم واضطرت هذه المجموعات المتصارعة إلى طرد الوالي الحفصي من طرابلس، واختار أهل طرابلس رجلاً من بينهم يدعى سيدي منصور، وقاموا بمبايعته حتى يقضي على الفتنة بما له من نفوذ بين هذه المجموعات المتصارعة، وتمت مبايعته على أثر خطبة ألقاها الشيخ عبد الحميد خطيب الجامع الكبير بطرابلس دعا فيها النّاس إلى مبايعة سيدي منصور، وأقسم الخطيب اليمين على طاعته وامتثال أوامره، وكان هذا كاعتراف رسمي بتوليته على هرم السلطة في البلاد وعندما بلغ هذا الخبر إلى قبائل غريان وبني وليد وترهونة ومسلاتة ومصراتة وتاجوراء وزواره أرسلت إليه بالتهاني [6].

غضب ملك تونس أبو عمر الحفصي على طرابلس لانتفاضها عليه وطردها لعامله،

وأخذ يستعد لتمكين نفوذه ثانية على البلاد، واستعد سيدي منصور أيضاً فجهز جيشاً مؤلفاً من خمسة آلاف من المشاة وثلاثة آلاف من الفرسان للدفاع عن استقلال بلاده وإبعادها عن دائرة نفوذ الحفصيين، وعندما تقدم الجيش الحفصي لاحتلال زواره كان الجيش الليبي في الميدان، وجرت بينهم معركة دامية خسر فيها ثلاثة آلاف جندي والبقية رجعوا إلى بلادهم، وصعب على السلطان الحفصي أن يرضى بهذه الهزيمة من أهل طرابلس، فحاول في السنة التالية وجهز جيشاً كبيرا وأراد احتلال طرابلس ولكن لم يكن نصيبه في هذه المرة بأحسن من نصيبه في المرة السابقة، فهزم جيشه من جديد وتشتت ورجعت منه البقية الباقية إلى بلادهم [7].

واستمر سيدي منصور في الحكم فترة طويلة، ولكنه بعد أن وطد دعائم حكمه واستقرت به الأحوال السياسية والاقتصادية والاجتماعية في البلاد بدأ يتغير شيئاً فشيئاً في نهج حكمه حيث كان في البداية يحكم بالعدل بين الناس متواضعاً لهم ويجتمع بهم في مناقشة أمور البلاد وتسيير دفة الحكم، إلا أنه صار جباراً ظلوماً مما جعل الناس يكرهونه ويبتعدون عنه، مما اضطر أحد أفراد عائلته إلى قتله بسبب ظلمه وقسوته عليهم، وبعد مقتله قام أهل طرابلس بمبايعة أحد رجال البلاد يدعى يوسف، حيث كان يتصف بالأخلاق الجيدة وبقربه من الأهالي ومن أثرياء البلاد، واستمر في الحكم لفترة تسع سنوات حكم فيها البلاد كما يريد أهلها بالعدل والأخلاق العالية والتواضع ولكنه مرض بالطاعون ومات سنة 1480م، وخلفه في الحكم شخص يدعى مامي واستمر في الحكم حتى عام 1492 م وبعد وفاته خلفه في الحكم عبد الله شرف الدين المرابط بإجماع الشعب وهو ولي صالح لتقواه وتعبده وإكثاره من الصلاة والاعتكاف، وبحكم الثقة التي يروها فيه والإجلال الكبير الذي يشعرون به نحوه، وكان يتمتع بالعدل والاستقامة في أموره ومعاملاته مع الرعية جميعاً دون تميز، وبذلك تولى أمور البلاد بحكمة واعتدال وكان على علاقة طيبة بجيرانه تونس والدول المسيحية شمال البلاد [8].

ويظهر أن الناس قاموا بمحبته والتعلق به ورغبتهم في حكمه يرجع إلى أسباب عدة وهي تتعلق بحياتهم المعيشية المادية والاقتصادية والاجتماعية وهي :

1 ـ عدم مطالبته للمواطنين بالضرائب الباهظة، وتساهله معهم في أمور جبايتها

حيث لم يفرضها عليهم بالكامل وإنما يأخذها منهم على فترات حتى لا تكون مثقلة عليهم في دفعها .

2 ـ شجع أهل طرابلس على القيام بالنشاط التجاري مما سبب في انتعاش التجارة وتنميتها، وأصبحت الحالة الاقتصادية في البلاد جيدة ومرتفعة مما نتج عنه امتلاء المخازن والمتاجر بالبضائع والسلع المتنوعة والناس في غناء وراحة ورغد في المعيشة وسعة في الحياة .

3 ـ تمتعت طرابلس في فترة حكمه بالاستقرار وسهولة المعيشة وتوفرت فيها أسباب الحياة المدنية، واشتهرت بوجود شيء من الحرية الشخصية في المعاملات التجارية بالداخل والخارج واحترام التجار الأجانب وخاصة الأوربيين مثل تجار مالطة والبندقية وصقلية وكذلك التجار الأفارقة ومراعاة العهود والمواثيق التي تبرم مع دولهم، وهذا كله يبعث على الراحة ويزيد من ثقة الشعب والتجار الوطنيين والأجانب في عرض بضائعهم، ويفتح أمامهم مجالاً واسعاً للكسب والمتاجرة وانتهاز الفرص واستغلال الأسواق الداخلية والخارجية .

4 ـ شجع نظام الحكم على تشجيع الصناعات اليدوية في البلاد ؛ حيث كان يقوم في المدينة عادة مائة وخمسون صناعة من صناعات المنسوجات الحريرية التي تصنع للاستهلاك المحلي مثل ملابس النساء كالأردية والفراشية والمحارم وغيرها من الأنسجة الحريرية زيادة على صناعات عدة أخرى خاصة بنسج الملابس التي ترتديها النساء والرجال على الكتف المغزولة من الصوف وشعر الماعز مما كانت صناعة النسيج في طرابلس نامية جداً .

5 ـ تلك الأسباب مجتمعة إلى جانب غناء وإثراء طرابلس بالذهب والفضة واللآليء والمجوهرات وغيرها من السلع القيمة، مثل المواد العطرية أصبحت مدينة متمدنة تتوفر فيها سبل الحياة المعيشية مما جعلها في هذه الفترة تتمتع ببنية تحتية، فتوفرت فيها المدارس والمساجد الكبيرة والمعاهد والمستشفيات، وكانت ميادينها وشوارعها واسعة وجميلة وكانت بها صهاريج كبيرة كانت تخزن فيها مياه الأمطار مما زاد في جمالها وأناقتها[9].

ولكن على الرغم من هذه الحياة السعيدة ورخاء العيش والحرية والعدالة الاجتماعية التي تحصل عليها أهل طرابلس في ظل حكم الشيخ عبد الله لمرابط فإنه إلى جانب المميزات التي تمتعت بها البلاد في فترة حكمه كانت له عيوب لم يحمد عقباها جرّت البلاد وشعبها إلى التعرض للاستعمار والغزو ؛ حيث لم يشغل نفسه بتوفير دفاع قوي للمدينة أملاً منه في عدم تعرض البلاد لأية مضايقات خارجية وشعوراً منه بافتقاره إلى الوسائل الفعالة لمقاومة أسطول قوي من الاعداء وتتمثل هذه العيوب في التالي :

1 ـ لم يسخر هذه البلاد والسير بها في حياة متوازية مع النهضة المدنية والحضارية التي شهدتها وذلك بالقيام بإعداد جيش قوي يستطيع أن يقوم بالدفاع عن هذه المقدرات الاقتصادية والحضارية، وإنما أصبح هذا الأمر في طي النسيان مما جعلها فريسة سهلة للاستعمار .

2 ـ لم يقم بالعمل على تحسين الأسوار بالمدينة وترميمها وإصلاح مداخلها حتى تكون محكمة لا يستطيع أي عدوان أن يدخل منها بسهولة والقضاء على أهلها .

3 ـ أن معظم المناطق المجاورة لمدينة طرابلس كانت تقع تحت نفوذ الشيوخ، وأولئك قاموا بقطع الصلة بينهم وبين مقر الحكم وامتنعوا عن الاعتراف بملك يؤدون إليه الضرائب ويدينون له بالطاعة، واستفحلت النعرة القبلية بدلاً من الروح الوطنية الصادقة، وكثيراً ما تنشب الحروب الطاحنة بين قبيلتين لأتفه الأسباب ولأبسط خلاف، وبذلك نجد الحكومة المركزية في طرابلس لم تتفاد هذه المشاكل والعمل على فرض سيطرتها وهيبتها وهيمنتها على هذه القبائل حتى تستطيع أن تكسب ودهم وتجعلهم يسيرون تحت أوامرها وتقضي على هذه الصراعات فيما بينهم وتسخرها لصالح البلاد وتكون منهم جيش كبير قوي تحت إمرتها للدفاع عن البلاد ومكتسباتها، ولكن نجد العكس من ذلك مما أدى هذا التسيب إلى زيادة هذا الخلاف والتطاحن بين القبائل ونتج عنه فتح المجال أمام أعدائهم الذين وجدوا ميداناً واسعاً وفرصة سانحة لإخضاعهم جميعاً والتغلب عليهم دون مشقة أو عناء [10].

الوضع في أسبانيا قبل قيامها بغزو ليبيا :ـ

تمكنت المملكة الإسبانية من تحقيق وحدتها السياسية والاجتماعية والاقتصادية وذلك بعد القضاء على الدويلات العربية الإسلامية واستيلائها على آخر معاقل المسلمين غرناطة عام 1492م وكان له أثر كبير في ازدياد الروح الوطنية بينهم وشعورهم بالاندفاع وراء هذا الانتصار والمغالاة في الشعور الديني، وبذلك نجحت إسبانيا نجاحاً منقطع النظير في السير قدماً لفرض الديانة المسيحية على جميع سكان البلاد، وكانت المملكة الإسبانية قد وقعت على وثيقة التسليم ذات السبعة والستين شرطاً المتضمنة احترام المسلمين في دينهم وأملاكهم وشعائرهم الدينية وسلامتهم وحرية هجرتهم، غير أن الإسبان نكثوا هذا العهد فاضطر عدد كبير من المسلمين للهجرة إلى البلاد العربية في شمال أفريقيا، وكان للكنيسة الكاثوليكية دور كبير بقيادة الكردينال كيليمانس (Ximenes) لمّا له من نفوذ على الملكة ايزابيلا (Ezabila) فابتدأت الدعوة إلى التنصير بطريقة الإرشاد أولاً، ثم كانت الطامة الكبرى سنة 905هـ / 1499م عندما قام طاغية قشتالة وآرغون بإكراه من بقى بها من الامّة الإسلامية على الدخول في الدين المسيحي وبأسر الكثير من المسلمين ونقل أسلحتهم وإخراجهم من معاقلهم ،وعملوا على إخراج الغالبية منهم والتمثيل بهم وتحريم إقامة الشعائر الدينية، وغلق المساجد وحرق الكتب الإسلامية الموجودة بغرناطة والتي تقدر بمئات الآلاف ولم يبق منها إلا ثلاثمائة كتاب في علوم الطب، وبعد سنتين من صدور القانون منع وجود الإسلام والمسلمين في إسبانيا إذ أصبح ذلك الوجود خطراً على المملكة الإسبانية والمذهب الكاثوليكي، ولم يبقوا على هذا الأمر بل إنهم ظلوا يتبعون المسلمين في الدول التي هاجروا إليها وخاصة في المدن الساحلية على الشاطي الشمالي للقارة الإفريقية المواجهة لهم، وازداد الإسبان رغبة في مطاردة العرب المسلمين للتنكيل بهم والقضاء على الدين الإسلامي ومطاردة معتنقيه أينما وجدوا، وانضم إلى هذه الحركة أنصار البابوية في روما وشاركت فيها كل الطوائف النصرانية، إلا أن الكاثوليك كانوا في المقدمة، حيث كانت رغبة الانتقام من المسلمين والعرب على الأخص تدفعهم دفعاً قوياً، وتبدو واضحة في أعمالهم الهمجية التي يرتكبونها في كل بلد تمكنوا من احتلاله، واتخذت بذلك شكلاً صليبياً، ولم يقتنع الملك الصليبي فرديناند «Ferdinand" الذي

كان يحرضه الكاردينال كيليمانس بالسيطرة وامتلاك ما تبقى للمسلمين في إسبانيا، بل ذهب إلى أبعد من ذلك حيث فكر في الاستيلاء على المقاطعات الواقعة في الشمال الإفريقي، وتضمنت خطة الغزو الاستيلاء على وهران وبجاية وطرابلس، وفي شهر سبتمبر عام 1505م بدأ تنفيذ الخطة وابتدأ دون دييجو القرطبي " Don Diego De Cordoba" بالاستيلاء على مرفى المرسى الكبير، وبعد مضي سنتين حضر الكردينال كيليمانس بنفسه في الهجوم على وهران والاستيلاء عليها، وشجعت هذه الانتصارات المبدئية الملك فرديناند على إرسال بيتروا دي نافارا (Pitro Di Navarra) لغزو مدينة بجاية التي أحتلها الجيش الإسباني في الخامس من يناير عام 1510م إلى جانب احتلالهم أمليلة والجزائر وسوسة وصفاقص وغيرها من المدن الساحلية [11].

3 ـ أسباب احتلال إسبانيا لليبيا :.

تكمن عدة أسباب في قيام الإسبان بالتفكير في احتلال ليبيا، ويمكن إيجاز الأسباب على النحو التالي «

1 . **محاولة إعاقة التحرك الكبير للدولة العثمانية الإسلامية في البحر المتوسط** :ظهرت الدولة العثمانية كدولة بحرية في الحوض الشرقي من البحر الأبيض المتوسط منذ أوائل القرن السادس عشر، وبدأت أعظم قوة في الشرق الأدنى، وكانت تمثل القوة الإسلامية الفتية، وخاصة بعد أن قاموا بتوسيع ممتلكاتهم بتقدمهم إلى أوروبا حيث قاموا بفتح القسطنطينية عام 1453م، وامتداد دولتهم في البلقان وبلاد اليونان وأصبح البحر الاسود بحيرة عثمانية، وكانت تنوي الاحتواء على الإمبراطوريتين الرومانية الشرقية والبلغارية، ووصل الأسطول التركي إلى مواجهة الدول المسيحية في الأراضي الإيطالية المطلة على جنوب البحر الابيض المتوسط كجزيرة البندقية وغيرها من الجزر الإيطالية، وكان العثمانيون يهدفون إلى التبشير بالدين الإسلامي في أوروبا وفتح آفاق جديدة له، واكتساب معتنقين جدد حتى يستطيعوا أن يوطدوا نفوذهم السياسي وسلطتهم الزمنية، وبعد حروبها في أوروبا اتجهت للقضاء على الدولة المملوكية في الشام ومصر والحجاز واليمن، وبذلك كان لزاماً على المملكة الإسبانية المتحدة الجديدة

الإسراع بوقف هذا الزحف التركي الإسلامي باحتلال أكثر ما يمكن من الموانى والسواحل لدول شمال أفريقيا قبل اتجاه الاسطول التركي إليها [12].

2. **الاقتراب من سواحل البحر الابيض المتوسط الشرقية** :.عمل الإسبان على العمل على القرب من هذه السواحل لامتلاك الموانى والأسواق لاحتكار تجارة المعادن النفيسة والتوابل التي ترد إليها عن طريق القوافل البرية وعن طريق البحر الاحمر من جنوب أسيا، ومحاولة منافسة الموانى الإيطالية وخاصة البندقية وجنوا حيث استغلوا أسواق أوروبا ببضائع الشرق على الرغم من أن الإسبان في ذلك الوقت توصلوا إلى معرفة طريق الهند بحراً في أفريقيا الغربية فمدينة الكاب فالمحيط الهندي. [13].

3. **نشر الدين المسيحي والقضاء على الدين الإسلامي** : تتسم أغلب الحملات الصليبية الإسبانية في الشمال الأفريقي ومن بينها ليبيا بالسمة الصليبية الشرسة وإعادة فكرة الحروب الصليبية ضد المسلمين في المشرق العربي لتحويلها إلى الشمال الأفريقي محاولة منها للقضاء على المسلمين بهذه المنطقة من الوطن العربي الإسلامي، ونشر الدين المسيحي ومحاربة الأديان الأخرى وخاصة الدين الإسلامي الحنيف بكل ما تملك من قوة، وترى المملكة الإسبانية المتحدة أن عليها عاتق نشر الدين المسيحي في هذه المناطق انتقاماً بما فعله المسلمون بالأندلس على مدار ثمانية قرون، حيث تتزعم الكنيسة الكاثوليكية هذه الهجمة الهمجية الشرسة على الدين الإسلامي ومن يعتنقه، وكلن سعيهم لنشر الدين المسيحي في دول شمال أفريقيا اعتقاداً منهم أن في ذلك ما يوطد دعائم ملكهم ويبعدهم من التعرض للتيارات الدينية الأخرى والتعرض إلى الانقلابات السياسية والاجتماعية والثقافية كما حدث لهم في القرن الثامن الميلادي عندما وجدوا أنفسهم في احضان العرب المسلمين واحتلالهم لبلادهم [14].

4. **اتخاذ طرابلس قاعدة عسكرية للصليبيين الإسبان شمال البحر المتوسط** : كان لادعاء الإسبان لتبرير هجماتهم واحتلالهم للبلاد على خوفهم من الأساطيل الإسلامية لغزوها وشن الغارات على الموانى الإسبانية وبلاد جنوب أوروبا،

ولذلك كان مجيء الإسبان إلى طرابلس لاتخاذها قاعدة أمامية تلجأ إليها مراكب وسفن وقراصنة الإسبان وبقية الشعوب المسيحية، لتحتمي بالموانى الحصينة على طول السواحل الليبية، وأيضا لتنفيذ سياسة التوسع وإسكان أكبر عدد ممكن من المسيحيين في طرابلس حتى يتمكنوا من السيطرة عليها بالكامل وجعلها قاعدة للغزو الداخلي وللإمدادات العسكرية للقوى الصليبية، ولتغيير وجه الاندفاع العثماني من جهة آخرى، وقد أصدر نائب الملك في صقلية في 26 أكتوبر عام 1513م مرسوماً يعلن فيه إلى كل من يرغب في الهجرة إلى طرابلس بأنه سوف يمنحهم بيوتا وأراضي للزراعة، وأنه يعفيهم من الضرائب ويبرئهم من جميع الجرائم إذا كانوا قد ارتكبوا جرائم من قبل [15].

5 . **دور الجواسيس في ترغيب المملكة الإسبانية في السيطرة على طرابلس** : . التجار الإسبان كانوا يأتون إلى الموانى الليبية، وكان بعضهم جواسيس على هيئة تجار، حيث قدّمت سفن النصارى الإسبان إلى طرابلس تجاراً ببضائع كثيرة ومتنوعة تقدر بأثمان باهظة، ومنذ وصولهم توجه إليهم أحد التجار الأغنياء واشترى كل ما على السفينة من بضائع، ودفع ثمنها نقداً وكذلك قام بضيافتهم تاجر آخر فقدم لهم طعاماً فاخراً، وقام بإخراج ياقوتة ثمينة ورشها على الطعام بعد أن قام بدقها دقاً ناعماً فاستغرب التجار الإسبان لهذا الفعل، ولمّا رجعوا إلى بلادهم سألهم أصحاب المّلك والشأن عن حال البلاد التي كانوا فيها فقالوا : ما رأينا بلداً أكثر منها مالاً وأقل سلاحاً وأعجز أهلاً عن الدفاع عن بلادهم وقاموا بالتشجيع على القيام بغزو هذه البلاد وحث الملك على ذلك الفعل [16].

6 ـ أهمية الموقع الجغرافي لليبيا وسبق التحدث عنه في البداية ص 2 .

4 ـ الاستعداد للحرب : ـ

بتلك الأسباب التي ذكرتها وعملاً بوصية ملكتهم إيزابيل لابنتها جوانا وزوجها فيليب بأن يواصلا الزحف حتى يدين لهم شمال أفريقيا بالكامل ونشر الديانة المسيحية بين سكانه، بدأت إسبانيا تستعد استعداداً كبيراً لغزو ليبيا، وبتشجيع من الكاردينال اكسينس أسقف طليطلة ورئيس وزراء فرديناند الكاثوليكي الذي جعل

نفسه داعية وملهما للحملات عل دول شمال أفريقيا التي اتخذت لون الحملات الصليبية، ففي 7 يونيو عام 1510م غادر الكونت دون بيترودي نافارا بيجايا على رأس 8000 رجل واتجه إلى فاقينيانا "Favignana" حيث ينتظر السفن القادمة إليه من نابولي وصقلية للمشاركة في الهجوم على طرابلس بقيادة العقيد دييجو البلنسي " Diego De Valencia"، وقد نظمت هذه تحت إشراف نائب الملك في صقلية، وفي يوم 15 يوليو 1510م اقلع الاسطول الإسباني من فاقينيانا ورسا على الجزر المالطية حيث تزود بالماء من جزيرة قوزو"Gozo" واستنجد بالمالطيين وانضم إلى الجيش رجل من مالطا كانت له معرفة جيدة بطرابلس كمرشد للحملة وجوليانو ابيلا "Giuliano Abela" وجيرو لامو فيانيللو " Giro Lama Vianello" الذي كان يساعد القائد الاعلى وهو ضابط من البندقية، وهو أيضا يعرف طرابلس معرفة جيدة، فقد جاءها من قبل في بعض الشؤون التجارية، وكانت الحملة مكونة من 60 سفينة وعدداً من المراكب ذات الشراعين و50 مركباً ذات ثلاثة أشرعة وانضمت إليها من مالطا 5 سفن مالطية مسلحة تسليحاً جيداً، وكان مجموعها 120 سفينة ومركب، وشحنت بخمسة عشر ألف جندي من الإسبان وثلاثة آلاف من المالطيين والطليان، وهذا الاستعداد الكبير يثبت لنا مدى الغّل والانتقام الذي يحمله الإسبان للعرب المسلمين وعزمهم على الاحتلال والغزو ونشر الدين المسيحي الذي يحلمون به، وخاصة اشترك مع الإسبان الصليبيين من إيطاليا ومالطا مما يدل بأنها حرب على الدين الإسلامي [17].

أما في طرابلس فالغزو الإسباني لم يكن أمراً مفاجئاً لأهلها إذ وصلت الأخبار السيئة والمنذرة بالحملة العسكرية المتوجهه إلى طرابلس قبل شهرين من وصولها مما جعل الأهالي يهجرون مدينة طرابلس إلى المناطق المجاورة كغريان وتاجوراء ومسلاتة وغيرها من المدن الأخرى واخذوا معهم كل ما كان مهماً من المال والمتاع على الجمال التي يقدر عددها بخمسة آلاف جمل، ولم يبق في المدينة إلا المحاربون وشيخ المدينة وأهله وبعض السكان الذين لم يقدروا على الفرار، وانحازوا إلى قصر الحكومة والجامع الكبير، وصعد المحاربون فوق الأسوار وعلى القلاع، وبذلك ساعدت احوال البلاد الداخلية على سرعة سقوط طرابلس، حيث إن أهلها ليس لهم القدرة

عن الدفاع عنها ؛ لأنه غير متوفر لديهم دفاع قوي للمدينة وشعوراً بافتقارهم إلى الوسائل الفعالة لمقاومة أسطول قوي مثل الأسطول الإسباني، وأن أهل طرابلس قبل الغزو أثروا إثراء كبيرا، وانغمسوا في الرفاهية وبهنيئة العيش وقد استأثروا بالحياة واستطابوا خفض العيش، وطال نومهم في ظل السلم فاستوت الحامية والرعية وتشابه الجندي والحضري، وقد انتهى بهم الرفه إلى تلك النتيجة التي تنتظر ذوي الرفاهة وهي انحلال العزائم وميعة الرجال التي جرت سنة الله أن تكون دائما سببا في انهيار كل أمة مترفة [18].

5. أحداث المعركة :-

اقتربت الحملة من سواحل طرابلس ليلة 25 يوليو عام 1510م، ونظراً لانخفاض وصعوبة تبين تضاريس هذا الساحل أرسل دي نافارا العقيد البندقي فيانيلو "Vianelo" الذي كان يعرف البلاد بغية استكشاف مرفئها واقترب من الساحل كثيراً وبعد ذلك رست السفن على ساحل البحر، وقام بمهمة إرشادها جوليانو أبيلا المالطي الأصل، وبدأوا بالنزول على الأرض بواسطة بعض المراكب والقوارب الصغيرة التي جرى إعدادها أثناء الليل فنقلت على جناح السرعة ستة آلاف رجل قبل منتصف النهار جنوب شرق المدينة بالقرب من سيد الشعاب لارتفاع هذه المنطقة، ولإشرافها على المدينة ولتوفر المياه الصالحة للشرب فيها، واقتربت السفن من القصر والأسوار المطلة على حوض الميناء، وأخذت ترميها بنيران مدافعها القوية، بينما كانت مدفعية الميدان تمهد السبيل إلى الجنود الإسبانيين وترمي الأسوار الجنوبية الشرقية بالقنابل، وكان قسم آخر من الجيش يحمي ظهور الغزاة المغيرين من أي هجوم يقع من طرف عرب المناطق المحيطة بطرابلس، وكان القتال يدور عنيفاً من البر والبحر، والمحاصرون يردون على الأعداء بالقذائف وبإلقاء السهام والصخور، وعمل قائد المعركة الإسباني دون بيترو نافارا على قيادة المعركة وأصبح ينتقل من مكان إلى مكان أخر لإصدار التعليمات والأوامر وتشجيع ورفع المعنويات للمقاتلين، ولقد تجمع الأهالي المدنيون في الجامع الكبير والقصر حيث الشيخ عبدالله بن شرف المرابط وعائلته، وحاول الجنود الإسبان تسلق أسوار القلعة ودام الهجوم الرامي إلى تسلق أسوار القلعة أربع ساعات،

وتدفقت هذه القوات كالسيل العارم داخل المدينة ومنها إلى حيث يتجمع الأهالي، وأقيمت مذبحة كبيرة للأهالي الذين أبدوا مقاومة مستميتة وصامدة في كل منطقة تدور فيها المعارك، ولم تتمكن البحرية الإسبانية من اقتحام باب البحر والاستيلاء على السور من الجانب الغربي للقلعة إلا بصعوبة تحت تأنيب وتعيير رؤسائهم بما أحرزته القوات البرية من الجهة المقابلة واجتيازها لكل الحواجز، واندفعوا غاضبين لأنفسهم وكرامتهم المجروحة، وتم لقاؤهم مع بقية القوات الغازية وتجمعوا وتعاونوا على محاصرة النقاط الرئيسية من المدينة وهي القلعة والمسجد الكبير حيث دارت المعركة الكبيرة فيهما وتم إطلاق سراح مئة وخمسين مسيحياً كانوا أسرى عند العرب مكبلين في السلاسل، وقد قدر عدد الموتى من جانب الأهالي بخمسة آلاف، أما الأسرى فعددهم يزيد على ستة آلاف، وإلى جانب الأسرى من أهل طرابلس وقع تحت سيطرة الغزاة المحتل عدد كبير من اليهود أطلق سراحهم مقابل فدية مالية قام بدفعها يهود إيطاليا، أما الأمير عبد الله المرابط فقد وقع في الأسر ونقل هو وأفراد أسرته إلى جزيرة باليرمو، وقدر قتلى الإسبان بحوالي ثلاثمائة جندي، وكان من بين قتلى الجيش الإسباني ضباط برتبة كبيرة وهم رويزي دياس دي بورتاس " Roysi Dias De Portas" أميرال الحملة كريستوفر لوبيز دي ريارم "Cristooforo Lopazde Riaram" وجوفياني ألفري سدي هوريا " Giovanni Alferes De Haria"، وبعد ثلاث ساعات من المعارك العنيفة وقبل أن تغرب شمس ذلك اليوم غربت دولة الشيخ عبد الله المرابط وفشلت كل المحاولات للمقاومة ووقعت جميع النقاط الرئيسية الاستراتجية في أيدي الإسبان الذين استولوا استيلاء تاماً على المدينة [19].

وبعد انتهاء الحرب نلاحظ أن الانتقام كان شديداً ضد أهل طرابلس العرب المسلمين من قبل الغزاة الصليبيين المسيحيين الإسبان ومن معهم من الطليان والمالطيين حيث كانت حرب دينية تعصبية لم يرحم فيها الأعداء من كان داخل المسجد الكبير ولا القصر، فعملوا فيهم قتلاً دون شفقة ولا رحمة، فقد سالت دماء الليبيين الزكية ساخنة على الأرض الجافة وجرت دماء حمراء غزيرة فلم يرحموا امرأة حاملا ولا طفلاً ولا شيخاً كبيراً، حيث تكدست جثث الموتى في الشوارع والحارات والأزقة والطرقات قرب

الأسوار والقصر والجامع الكبير وفوق الأبراج وحيث ما حللت وأينما وضعت قدمك جثث اطفال ونساء مبتورات البطون ومقطوعات الصدر وشيوخ وكهول، وقد ألقيت هذه الجثث في صهاريج المساجد وبعضها في البحر طعمة للأسماك، وأحرق البعض منها، وللأسف يطلقون على هذه الحروب بالحروب المتقدمة، وهذه هي همجية الملك الصليبي المسيحي الكاثوليكي لا شفقة ولا رحمة ولا رفق ولا تسامح، بل حقد وكراهية وانتقام ومعصية [20].

6. حركة المقاومة الوطنية :-

استطاع الإسبان احتلال مدينة طرابلس وبسط أيديهم عليها وقتل الكثير من أهلها وأسر عدد كبير منهم إلا من تسلق الأسوار ليلاً وهرب إلى تاجوراء وجبال غريان ومسلاتة، ولم يرضوا البقاء في وسط المدينة في ظل المحتلين الصليبيين الإسبان والخضوع لهم، وبدأت فكرة مقاومة المحتلين بكل السبل المتاحة لديهم ولم يرضوا بالأعمال الشنيعة التي يرتكبها المستعمر والفظائع التي يقوم بها داخل المدينة، واستغلوا فرصة خروج القائد بترو دي نافارا في يوليو عام 1510م إلى جزيرة جربة التونسية، فقاموا بالهجوم على المدينة وتسلقوا الأسوار، ولكنهم لم يوفقوا نظراً لكثرة الجنود المحتلين وكثرة سلاحهم المكون من المدفعية الثقيلة وغيرها من الأسلحة وعدم وجود سلاح تقيل عند المجاهدين الليبيين ونقص الخبرة الحربية لديهم فرجعوا أدراجهم إلى تاجوراء والمناطق الأخرى القادمين منها، ولكنهم لم يصبروا ويستكينوا ويرضوا بالذل وأصبحوا في قلق شديد مستمر واستعانوا بإخوانهم في الدواخل، وتألفت مراكز للمقاومة في الجبل الغربي وتاجوراء وغريان، وقد أعاد المجاهدون الكرة مرة آخرى للهجوم على جنود الاحتلال في شهر فبراير عام 1511م، وصد جنود الاستعمار هذا الهجوم بقيادة ديجو دي فيرا " Diego De Vera" الذي عهد إليه بقيادة الحمية، وكانت مهمة هذا القائد عسيرة وشاقة، فكان عليه أن يصمد ويواجه الهجمات العنيفة التي يقوم بها الأتراك والجزائريون وسكان المناطق المجاورة لطرابلس، حيث قام أكثر من أربعين ألف جندي من الأتراك والعرب بمحاصرة طرابلس لفترة من الزمن، ولكنهم

لم يستطيعوا التغلب على المقاومة الشديدة التي أبداها المتحصنون، وذلك بسبب طلب القائد ديجودي فيرا النجدة والتوجيه من بيتر ودي نافارا الذي كان موجوداً في جزيرة لمبدوزا المالطية، واستعد على رأس جيش قوي لنجدة القائد العسكري وجنوده في حامية طرابلس، واقترح عليه أن يهيئ أثناء ذلك لغماً ضخماً لتدمير كثير من الأعداء واستطاع القائد ديجودي فيرا بمساعدة بيتر ودي نافارا الذي وصل في الوقت المناسب لتقديم النجدة والعون وأن ينتصروا على المجاهدين ومن قاموا بمساعدتهم المحاصرين لمدينة طرابلس بعد أن فجر ذلك اللغم الذي ألقى الاضطراب في صفوف الهاجمين، وكذلك أصاب كثيراً من جنود الإسبان بخسائر فادحة، وقتل في هذه المعركة بيتر ودي نافارا، وخلف ديجو دي فيرا في حكم طرابلس دون بيترو دي مونكاد " Don Pietro Di Moncada" وطالت الحرب سجالاً بين أهالي طرابلس والمستعمر الصليبي الأسباني، فلم يستطع أحدهم التغلب على الآخر، حيث لم يستطع المجاهدون في تاجوراء ومناطق الدواخل أن يقتحموا المدينة ويدخلوها لتحريرها من جنود الأسبان، ولا المستعمر الإسباني استطاع أن يتغلب على المجاهدين وينتصر عليهم ويضع حداً لهجماتهم ويخمدها ويسيطر بالكامل على البلاد، وبعدما استولى خير الدين بربروسا على الجزائر عام 1517م طلب أهالي طرابلس الذين سئموا ظلم المستعمر من خير الدين بربروسا العمل على بسط سيطرته على البلاد، ولكنه لم يستطع فعل ذلك وتبدد حلم الليبيين وأخذ الأمل يتباعد وخاصة بعد أن بدأ يتزايد عدد المسيحيين في طرابلس، وظل الأمر كما هو عليه كرً وفرً بين الطرفين إلى أن تم تسليم طرابلس إلى فرسان القديس يوحنا عام 1530م [21].

وعلى الرغم من أن أهالي طرابلس وخاصة النازحين عن المدينة يضعون شرطاً لعودتهم إلى المدينة بأن يكون الشيخ عبد الله المرابط أول القادمين إليها، ولكن نائب الملك في صقلية لم يستجب لهم في بداية الأمر ؛ لأنه كان يفكر في إرسال عدد كبير من المسيحيين لتعميرها والاستيطان فيها حتى يستطيع أن يجعلها مدينة مسيحية تدين بالدين المسيحي بدلاً من الدين الإسلامي، وأيضا ربما كان يفكر بأن يفرضه على الأهالي بالقوة كما حدث في إسبانيا عام 1499م عندما قاموا بتنصير عدد كثير من

المسلمين بالقوة، ولكن في نهاية المطاف أرسل الملك الكاثوليكي شارل الخامس في عام 1520م إلى نائب الملك في صقلية رسالة تتضمن الموافقة على مشروع إعادة الشيخ عبد الله لمرابط إلى بلاده من أجل توطيد العلاقات بين المحتلين والأهالي وتهدئة الحالة، وبعودته إلى المدينة رجعت إليها ما يقارب من خمسمائة عائلة من العرب النازحين، ولكن الشيخ عبد الله لمرابط على الرغم من رجوعه إلى البلاد فإنه لم ينس ما حدث في طرابلس من قتل وتعذيب وتشريد وأسر من قبل الصليبيين الإسبان ومن عاونهم في الغزو عام 1510م، وإنما ظل صابراً إلى أن انتهز الفرصة في سنة 1526م وهرب من المدينة وانضم إلى الثوار في تاجوراء للمشاركة في حركة المقاومة ضد المحتل، وانضم معه كثير من الأهالي، وبدأ الإسبان يعتبرون هروبه هو تأليب أهل تاجوراء والمناطق الأخرى المجاورة للانقضاض على المدينة ودب الخوف والرعب بين صفوفهم [22].

7. وضع الإسبان في طرابلس بعد الاحتلال :-

لقد انتهت الحرب بين الغزاة وأهل البلاد وانتصر فيها الصليبيون الإسبان على أهل طرابلس، ولكن لم يتحصل القائد الإسباني بيترو دي نافارا وجنوده على الغنائم الكثيرة التي كانوا يحلمون بوجودها في البلاد مثل الذهب والمجوهرات والنقود كما صورها لهم الجواسيس الإسبان الذين كانوا على هيئة تجار، وذلك نظراً لخروج كل الأغنياء والأثرياء من مدينة طرابلس إلى المناطق المجاورة وحمل كل ما لديهم من مقتنيات وأموال ومجوهرات، وكانت خيبة أمل لهم، وكل ما تحصلوا عليه هو سفينة واحدة كبيرة، وثلاثة سفن من النوع المتوسط بالإضافة إلى عدة سفن آخرى صغيرة وكبيرة كان في طريقها إلى طرابلس قادمة من الإسكندرية من بينها سفينة تركية محملة بالبهارات وأخرى يونانية قادمة من اليونان دون علمها بالغزو الإسباني لليبيا، وبعد أن استقر الإسبان في طرابلس كان عليهم توفير الأموال اللازمة لتأمين معيشتهم ولذلك طلبوا العون من المملكة الإسبانية المتحدة، وكذلك بدؤوا يهتمون بالتحصينات الدفاعية في الميناء والقلعة بصفة خاصة، وعملوا على تحصينها بأسوار قوية ومدفعية ضخمة، وتم تجديد حصن القديس بطرس الذي يحمي الميناء، وتم بناء برجين مربعين من جهة البر على مسافة بعيدة من المدينة لحمايتها من المحاربين الليبيين القادمين من

البر، وعلى الرغم من كل هذه التحصينات التي أقامها الغزاة الإسبان فنجد نفوذهم السياسي لا يمتد إلى أبعد من أسوار المدينة ذاتها إلا في فترات محددة من الزمن، أما بقية البلاد فقد كانت تحكم من أهلها حكماً محلياً يسيطر عليه شيخ أو شيوخ القبائل التي تسكنها يعاونهم في ذلك أعيان القوم ووجهاؤهم، والقانون السائد فيه للعرف، والأمن يحفظه توازن كتل السكان الاجتماعية، وبذلك عمل الإسبان على تثبيت دعائم حكمهم المنهار في طرابلس باستعمال مختلف الوسائل فكانوا يحاولون الاتصال بزعماء القبائل يعرضون عليهم كثيراً من أنواع الاغراء لعلهم يستطيعون أن ينالوا منهم تأييدهم ولو بمجرد الكلام، ومرة آخرى يلجأون إلى أساليب العنف والتهديد حينما يرون أن أسلوبهم الأول قد مني بالفشل والخذلان، وأصبح الأمر على ما هو عليه إلى أن تم تسليمهم مدينة طرابلس إلى فرسان القديس يوحنا عام 1530م[23].

ومن ناحية الوضع الاقتصادي في البلاد فبعد انتهاء الحرب وسيطرة الغزاة الصليبيين على أرض الوطن فإنهم عملوا على السيطرة واحتكار المعاملات التجارية وضمانها لصالحهم، حيث كانوا يسمحون للتجار الإسبان بحرية الاستيراد وإعفائهم من الضرائب في الموانى، وعلى العكس من ذلك فقد قاموا بفرض ضرائب باهظة على التجار الليبيين والأجانب من جنسيات آخرى بنسبة خمسين بالمائة بالإضافة إلى الرسوم العادية على جميع الانسجة الصوفية المصنوعة في الخارج والقادمة من أوروبا في طريقها إلى البلدان الأفريقية، وقد اشتكى التجار من البندقية وباقي المدن الإيطاليه من هذه الإجراءات التي أصابت تجارتهم بأضرار باهظة إلى الملك شارل الخامس عام 1518م بواسطة السفير الإيطالي كورنارو، ولقد انشغل أهل البلاد بأمر الغزاة الإسبان عن أعمالهم ومتابعة نشاطاتهم الزراعية والصناعية والتجارية، فعم الخراب والفقر في البلاد، وبذلك أخذ الوضع الاقتصادي وخاصة من ناحية التجارة ينهار بسرعة بسبب هذه الإجراءات وعزلة المدينة من قبل الثوار الذين كانوا يمنعون أي حركة منتظمة تتجاوز أسوار المدينة للاتصال بالدواخل والمراكز الساحلية الأخرى، كل هذه الأسباب كانت من أكبر العوامل التي جعلت سكان البلاد في فقر مدقع وأسواقها في كساد مستمر وتجارتها في بوار، والمنطقة كلها في خراب وتم العبث بجميع

أنواع النشاط المادي والحضاري فيها [24].

وحاول الإسبان أن يطمسوا الهوية العربية الإسلامية ويصبغوا البلاد بالصبغة المسيحية منذ بداية الاحتلال، فبدأوا يحاولون تغيير معالم طرابلس حيث قاموا بإحداث تغيير في السرايا التي كانت مبنية من قبل على يد الأفارقة في موضع بناء روماني قديم، فقد قاموا بترميمها وأضيفت إليها أجنحة أخرى، فعلى سبيل المثال أن ساحة السرايا في الأصل كانت مربعة الشكل، قد دعمت بأربعة حصون لها حافّات أطلق عليها أسماء مسيحية صليبية القدسية بارب "St - Barbe" والقديس يعقوب "St - Jacyues" والقديس يوحنا "St - Georges" والقديس انطوان " St - Antoine" وحولت أجمل قاعات السرايا إلى كنيسة سميت كنيسة القديس ليوناردو " St - Leonard"، بالإضافة أنهم قاموا بطرد الغالبية العظمى من الأهالي خارج طرابلس وهدمت منازلهم والمباني العامة من أجل استيطانها بالسكان المسيحيين الذين سيهاجرون إليها من دول أوروبا المسيحية تبعاً للبرنامج الملكي الذي وضعه فرديناند ملك إسبانيا الصليبية الكاثوليكية [25].

نتائج البحث :-

وأخيراً أختم هذا البحث بذكر أهم النتائج التي توصلت إليها والتي كانت على النحو التالي :

1 ـ امتازت ليبيا على مر العصور بموقع جغرافي استراتيجي هام على البحر الأبيض المتوسط بمساحة 1900كم2، وحلقة وصل بين الدول الأوربية في الشمال والدول الإفريقية في الجنوب، وكذلك حلقة وصل بين المشرق العربي والمغرب العربي، لذلك كانت في جزء طويل من تاريخها فريسة للاستعمار والقوى الخارجية .

2 ـ عاشت طرابلس في ولاية عبد الله بن شرف المرابط الذي تولى الحكم في طرابلس عام 1492 م حياة عز وغناء ورفاهية وترف، والحلة الاقتصادية في حالة ممتازة، وتمتعت بالاستقرار وسهولة المعيشة، وتوفرت فيها أسباب الحياة المدنية، واشتهرت بشيء من الحرية الشخصية والعدالة الاجتماعية في المعاملات التجارية بالداخل والخارج .

3 ـ على الرغم من هذه الحياة السعيدة الهنيئة التي تحصل عليها أهل البلاد فإنه كان يجب أن يوازي هذه الحياة بناء جيش كبير قوي مستعد استعداداً كاملاً للدفاع عن

هذه المكتسبات الاقتصادية والحضارية والثقافية الكبيرة، والعمل على ترميم وإصلاح أسوار ومداخل المدينة حتى تكون محكمة لا يستطيع أي معتد أن يدخلها بسهلة، ولكن هذا الأمر في طي النسيان مما جعلها فريسة سهلة للاستعمار .

4 ـ كان لانقسام المسلمين في الأندلس إلى دويلات وممالك ضعيفة عمل على استطاعة الإسبان إنشاء دولة متحدة والقضاء على آخر معاقل المسلمين بطليطلة عام 1492م، مما كان له الأثر الكبير في ازدياد الروح الوطنية بينهم وشعورهم بالاندفاع وراء هذا الانتصار والمغالاة في الشعور الديني .

5 ـ نكث الإسبان عهدهم مع المسلمين في الأندلس على الوثيقة الموقعة بينهم المتضمنة احترامهم في دينهم وأملاكهم وشعائرهم الدينية وسلامتهم وحرية هجرتهم، فاضطر عدد كبير منهم للهجرة إلى البلاد العربية في شمال أفريقيا .

6 ـ لم يكتف الصليبيون المسيحيون على طرد المسلمين من بلادهم، بل إنهم عملوا على تتبعهم في الدول التي هاجروا إليها ومطاردتهم للتنكيل بهم والقضاء على الدين الإسلامي وتعقبهم أينما وجدوا، حيث كانت رغبة الانتقام من المسلمين والعرب تدفعهم دفعاً قوياً وتبدو واضحة في أعمالهم الهمجية التي يرتكبونها في كل مدينة تمكنوا من احتلالها .

7. لم يقتنع الملك الصليبي فرديناند بالسيطرة وامتلاك ما تبقى للمسلمين في بلاده وطردهم منها، بل ذهب إلى أبعد من ذلك حيث فكر في الاستيلاء على مدن شمال أفريقيا الساحلية مثل مليلة ووهران وبجاية وطرابلس وصفاقص وغيرها من المدن الساحلية .

8 ـ من أسباب احتلال الإسبان لطرابلس ليس كما كانوا يدعون هو نشر الدين المسيحي فقط، وإنما كانت لهم أغراض أخرى منها محاولة إعاقة التحرك للدولة العثمانية الإسلامية في البحر الأبيض المتوسط، والاقتراب من سواحل البحر الأبيض المتوسط الشرقية، واتخاذها قاعدة عسكرية للقوات الصليبية المسيحية في شمال البحر التوسط .

9 ـ لم تكن الحرب التي شنتها إسبانيا على ليبيا حرب دولة على دولة آخرى بل كانت

حرب صليبية شرسة حيث اشتركت فيها عدة دول مسيحية مما سهل على أمر احتلال طرابلس بسرعة .

10 ـ عمل تجار وأثرياء أهل طرابلس على نقل كل أموالهم خارجها إلى المناطق المجاورة مثل مسلاتة وتاجوراء وترهونة وغيرها من المناطق الداخلية.

11 ـ كانت الحرب بين الغزاة وأهل طرابلس حرباً قوية ناضل فيها المواطنون كثيراً ولكن الغزاة كان استعدادهم لها قوياً، فاستولوا عليها قبل غروب الشمس، ولكنها كانت معركة فاجعة قوية لأهل طرابلس، حيث لم يراع فيها الغزاة الصليبيون حرمة للنساء والشيوخ والأطفال الرضع، وكان الانتقام بشعا وقويا، حيث اعتبرها الغزاة حرباً دينية تعصبية صليبية لم يرحم فيها أحد فقتلوا الجميع دون شفقة ولا رحمة ولا انسانية .

12 ـ حاول أهل طرابلس الذين خرجوا منها الاستعانة بإخوانهم من الدواخل تاجوراء ومسلاتة وترهونة وغريان حيث تألفت مراكز للمقاومة ضد المحتلين هاجموا الغزاة دون جدوى، في المقابل لم يستطع الغزاة المحتلون على الرغم من القوة العسكرية الكبيرة والعدد الهائل من الجنود من الخروج خارج أسوار المدينة واحتلال أي منطقة آخرى إلى أن قاموا بتسليمها إلى فرسان القديس يوحنا عام 1530م .

13 ـ عمل المحتلون على السيطرة واحتكار المعاملات التجارية وضمانها لصالحهم حيث سمحوا للتجار الإسبان بحرية الاستيراد وإعفائهم من الضرائب وعلى العكس من ذلك فقد قاموا بفرض ضرائب باهظة على التجار الليبيين والأجانب بنسبة 50 ٪ وبذلك عم الخراب والفقر في البلاد، وأصبحت الأسواق في كساد مستمر والتجارة في بوار، وتم العبث بجميع أنواع النشاط المادي والحضاري في البلاد .

14 ـ عمل الغزاة المحتلون على محاولة تغيير معالم البلاد وطمس هويتها الإسلامية والحضارية والثقافية حيث أطلقوا بعض الأسماء المسيحية في بعض انحاء المدينة مثل القديسة بارب، القديس يعقوب، القديس يوحنا، والقديس انطوان، وحولوا أحد قاعات القلعة إلى كنيسة سميت كنيسة القديس ليونارد .

15 ـ لم يستطع الإسبان الصليبيون الصمود والبقاء في البلاد نظراً لعدم حصولهم على ما كانوا يحلمون به من أموال ودخائر وذهب وجواهر كما صورها لهم الجواسيس

الأسبان، وإنما ضاقت عليهم المعيشة وبدأوا يطالبون بالمؤن من المملكة الإسبانية، بالإضافة إلى عدم تمكنهم بحرية الحركة لمضايقة المجاهدين لهم، مما تركوها إلى فرسان القديس يوحنا عام 1530 م .

هوامش البحث :-

1 ـ ينظر . محمد المبروك المهدي . جغرافية ليبيا البشرية . المنشأة الشعبية للنشر والتوزيع بنغازي، د ت، ص1، جمال حمدان . الجمهورية العربية دراسة في الجغرافية السياسية . عالم الكتب القاهرة 1973م، ص 44، يسرى عبد الرزاق الجوهري . شمال أفريقيا دراسة في الجغرافية التاريخية والإقليمية . مؤسسة شباب الجامعة الاسكندرية، د ت، ص 332 .

2 ـ ينظر . زاهية قدورة . تاريخ العرب الحديث عينة للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية . القاهرة 1994م، ص 297، رأفت غنيمي الشيخ . تاريخ العرب الحديث . دار النهضة العربية بيروت 1985م، ص 409 .

3 ـ ينظر . شوقي عطا الله الجمل .المغرب العربي الكبير . ط2 . المكتب المصري للتوزيع والمطبوعات القاهرة 1977م، ص 126، عبد الرحمن السعدي . تاريخ أفريقيا ما وراء الصحراء . تحقيق الهادي مبروك الذالي . ج1 . مركز البحوث والدراسات الإفريقية طرابلس 2010م، ص 21، بشير قاسم يوشع . غدامس ملامح وصور . ط2 . مطابع الفاتح مصراتة، د ت، ص ص 10 ـ 11 .

4 ـ ينظر . محمد صبحي عبد الكريم وآخرون . الوطن العربي أرضه، سكانه، وموارده . مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة، د ت، ص 18 ، نجمي ضياف . غات وتجارة القوافل الصحراوية . مركز جهاد دراسات الليبيين طرابلس 1999م، رجب نصير الأبيض . مدينة مرزق وتجارة القوافل الصحراوية خلال القرن التاسع عشرة . مركز جهاد دراسات الليبيين طرابلس 1998 م .

5 ـ جمال حمدان . مرجع سابق . ص 44 .

6 ـ ينظر . محمد العروسي المطوي . السلطنة الحفصية تاريخها السياسي ودورها في المغرب الإسلامي . بيروت 1986م، ص 658، عمر محمد الباروني . الإسبان وفرسان القديس يوحنا في طرابلس . القاهرة 2001م، ص ص 10 ـ 11 .

7 ـ المرجع السابق، ص 11 .

8 ـ كوستا نزيو برنيا . طرابلس من 1510 ـ إلى 1850م . ترجمة خليفة محمد التليسي . الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان مصراتة، د ت، ص 22، محمد عمر الباروني . مرجع سابق، ص 13 .

9 ـ ينظر . أبي عبد الله بن خليل بن غلبون الطرابلسي . التذكار في من مللك طرابلس وما كان بها من الأخبار . تحقيق الطاهر محمد الزاوي . القاهرة 1349هـ، ص 93، شارل فيرو . الحوليات الليبية . ترجمة عبد الكريم محمد الوافي . ط3ز جامعة قار يونس بنغازي 1994م ص 75، الطاهر محمد الزاوي . تاريخ الفتح العربي في ليبيا . ط3 . دار المدار الإسلامي طرابلس

2004 م، ص ص 278 ـ 279، عمر الباروني . مرجع سابق، ص ص 20 ـ 21 .

10 ـ ينظر . أحمد بك النائب الأنصاري الطرابلسي . المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب . مكتبة الفرجاني طرابلس، د ت، ص ص 184 ـ 185 ، محمد مصطفى بازاما . ليبيا في عشرون سنة من حكم الإسبان 1510 ـ 1530 م . مكتبة الفرجاني طرابلس 1965م، ص 41، محمد العروسي المطوي . مرجع سلبق، ص 660 ، عمر علي بن إسماعيل . إنهيار الأسرة القرمانلية في ليبيا . مكتبة الفرجاني طرابلس1966م، ص 18 .

11 ـ ينظر . شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني . ازهار الرياض في أخبار عياض . ج1 . صندوق إحياء التراث الإسلامي الرباط 1978م، ص ص 69 ـ 70 ـ 71، شوقي عطا الله الجمل . المغرب العربي الكبير في العصر الحديث، مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة 1977م، ص ص 78 ـ 79، شوقي عطا الله الجمل، عبد الله عبد الرزاق إبراهيم . تاريخ أفريقيا الحديث والمعاصر . ط2 . دار الزهراء الرياض 2001م، ص86، محمد العروسي . مرجع سابق، ص 654، الطاهر الزاوي . مرجع سابق، ص ص 277 ـ 278، كوستا نزيو برنيا، مرجع سابق، ص 21، شارل فيرو . مرجع سابق، ص 73 .

12 ـ ينظر . محمد العروسي المطوي . مرجع سابق، ص ص 656 ـ 657، شوقي الجمل، عبد الله عبد الرزاق إبراهيم . تاريخ المسلمين في أفريقيا ومشكلاتهم . دار الثقافة للنشر والتوزيع القاهرة 1996م، ص52 ، عمر عبد العزيز عمر . تاريخ العرب الحديث . دار النهضة العربي بيروت1980م، ص41، عمر الباروني . مرجع سابق، ص7، كوستا نزيو برنيا . مرجع سابق، ص30 .

13 ـ عمر الباروني . المرجع السابق، ص ص 6 ـ 7 .

14 ـ الطاهر أحمد الزاوي . مرجع سابق، ص 277، عمر الباروني . مرجع سابق، ص5، محمد مصطفى بازاما . مرجع سابق، ص 17 .

15 ـ ينظر . ايتوري روسي . طرابلس تحت حكم الإسبان وفرسان مالطا . ترجمة خليفة محمد التليسي . مؤسسة الثقافة الليبية للتأليف والترجمة والنشر طرابلس ،د ت، ص 37 . كوستا نزيو برنيا . مرجع سابق، ص 22، عمر علي بن إسماعيل . مرجع سابق، ص 18، محمد مصطفى بازاما . مرجع سابق، ص 44 .

16 ـ ينظر . أبي عبد الله بن خليل بن غلبون الطرابلسي . مصدر سابق، ص 93، أحمد بك الأنصاري الطرابلسي . مصدر سابق، ص ص 184 ـ 185 .

17 ـ ينظر . مجموعة من المؤلفين . تاريخنا ليبيا من التحرير الإسلامي حتى القرن الهجري العاشر دار التراث 1977م، ص 23، الطاهر أحمد الزاوي . مرجع سابق، ص 279، عمر الباروني . مرجع سابق، ص ص 31 ـ 32، محمد مصطفى بازاما . مرجع سابق، ص ص 17 ـ 18، شارل فيرو . مرجع سابق، ص 75 .

18 ـ ينظر . أحمد بك الأنصاري . مصدر سابق . ص 185، الطاهر أحمد الزاوي . مرجع سابق،

ص 284، محمد العروسي المطوي . مرجع سابق، ص 660 .

19 ـ ينظر . مجموعة من المؤلفين . تاريخنا . مرجع سابق، ص 230، كوستا نزيو برنيا . مرجع سابق، ص ص 25 ـ 26 ـ 27، محمد عمر الباروني . مرجع سابق، ص ص 34 ـ 35 ـ 36 ـ 38 ، أحمد بك الأنصاري . مصدر سابق، ص 185، الطاهر أحمد الزاوي . مرجع سابق، ص 280 . شارل فيرو . مرجع سابق، ص 75 .

20 ـ محمد عمر الباروني . مرج سابق، ص ص 39 ـ 40 .

21 ـ ينظر .أبي عبد الله بن غلبون . مصدر سابق، ص 93 ، كوستا نزيو برنيا . مرجع سابق، ص 30 ـ 32، أيتوري روسي . مرجع سابق، ص 35 .

22 ـ ينظر . مجموعة من المؤلفين . تاريخنا . مرجع سابق ، ص 231، أيتوري روسي . مرجع سابق، ص 38 ـ 45 .

23 ـ ينظر . شارل فيرو . مرجع سابق، ص 77، محمد مصطفى بازاما .مرجع سابق، ص 23، كوستا نزيو برنيا . مرجع سابق، ص 29، عمر علي بن إسماعيل . مرجع سابق، ص 19 .

24 ـ ينظر . الطاهر أحمد الزاوي . مرجع سابق، ص 289، أيتوري روسي . مرجع سابق، ص 36.

25 ـ شارل فيرو . مرجع سابق ، ص ص 77 ـ 78 .